

اهداءات ٢٠٠٠

مكتبة

ا.د محمد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

زيننا عبد الحميد

اقبال

الفيلسوف الشاعر

محاضرة عن إقبال
ألفتها بجامعة القاهرة في يوم ذكره
الشرفية زينب عبد الحميد



الشريفة مدينا عبد الحميد

الشريفة دينا عبد الحميد

- ولدت في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ بالإسكندرية .
- أبوها الشريف عبد الحميد بن عبد العزيز بن عون الرفيق أمير مكة المكرمة من سنة ١٢٩٩ هـ حتى سنة ١٣٢٤ هـ .
- تعلمت بمدرسة (سانت كلير) وحازت (المتركيوليشن) ثم التحقت بجامعة (كامبردج) بإنجلترا وتحصلت على شهادة (الماجستير) في الأدب الإنجليزي ، فكانت أول حجازية سلكت سبيل العلم والعرفان وضربت بسهم وافر فيها .
- ذهبت إلى الحجاز مع أبيها وعمها الشريف حسن في سنة ١٣٥٢ هـ وعادت إلى مصر في نفس العام .
- التحقت بجامعة القاهرة مدرسة للأدب الإنجليزي وتركت أترا مشرفا في تلامذتها وزملائها تحدثت عنه الصحف والمجلات في ذلك الحين .
- اعتلت عرش الأردن وأسهمت في نهضة المرأة الأردنية بقدر ما سمحت به الظروف فلسفتها في الحكم أن الشعب فوق العرش .
- تركت عرش الأردن لتجلس على عرش أثبت ... عرش القلوب
- جمعت بين الثقافة العالية والخلق الممتاز ، والشخصية القوية ، لذلك كانت إحدى المنارات الكبرى للمرأة في عصر القومية العربية
- دلت محاضرتها عن إقبال على إطلاع واسع ، وذوق رفيع ؛ وإلمانية أرفع .
- تنذوق الأدب وتنقده فهي أديبة وناقدة .
- تحيد الإنجليزية ، والفرنسية ، والتركية ، إلى جانب اللغة العربية .
- جعلت من البساطة فنا عظيما للأناقة .
- الحضارة في نظرها ضريح من علم الغرب ، وروحانية الشرق .
- متمسكة بتقاليد الحجاز وعادات أهله ومعتزة بذلك .

ابراهيم هاشم فلالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يشرفني أن أقف اليوم في هذا الحفل في رحاب جامعة القاهرة
وبين هذا الجمع الكريم بمناسبة الاحتفال بذكرى شاعر الإسلام
الكبير محمد إقبال ، وأن تتاح لي الفرصة لتحية ذكراه الطيبة .
وإني لا أشك في أنني أعبر عن مشاعر الجميع عندما أحيي أيضاً بهذه
المناسبة ذكرى المغفور له الأستاذ الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام
الذي كان له الفضل الأكبر في تعريف العالم العربي بشعر إقبال
وفلسفته مسهماً بذلك في الخدمة الجليلة للربط بين آراء العالم
الإسلامي . والحديث في هذه المناسبة هو أكثر من احتفال بذكرى ،
إذ هو إحياء واستلهام لآراء الشاعر الذي أصبح صوته اليوم يدوي
عبر الموت وعبر الزمن منادياً بالإصلاح والتجديد والتقدم . ذلك
النداء الذي عم شعره وفلسفته . تلك الفلسفة التي كونها ونادى بها
لحث الأمة الإسلامية على الحياة والعمل واليقظة من السبات الذي
تردى فيه بعض أجزاء العالم الإسلامي لأسباب تاريخية شتى .
لقد سمى إقبال بالشاعر الفيلسوف ، فالشعر والفلسفة عنده
مرآتان لنفس واحدة ، لا نستطيع أن نفصل بينهما . وربما كان

اهتمامنا بإقبال الفيلسوف يفوق تقديرنا لإقبال الشاعر . فذلك لأن ما يعنينا في هذا العصر وفي هذه الحقبة في تاريخنا هي المبادئ الفلسفية التي أراد بها إقبال أن يقود الشباب الشرقى إلى المقدمة . ألا وهي فلسفة الإيمان بالذات فلسفة العمل والقوة غير أن عظمة إقبال الشعرية قد اعترف بها كل من استطاع أن يقرأ دواوينه في أصلها الفارسي والأوردى . وشهد له بالتفوق الأدبي لفظاً ومعنى وأسلوباً وجوهرآ .

فإن أبياته حتى في ترجمتها العربية والإنكليزية تقر بشاعرية قوية وخيال خصب جبار .

فحيناً تنساب في سلاسة وعذوبة وحيناً تعلو وترعد وكأنها أصوات الأمواج التي يتكرر تصويره لها في شعره والتي يستعملها رمزاً لما يصادف المرء في الحياة من عقبات وامتحان .

وإن كتابات إقبال قد صادفت منذ فجرها الأول صدى كبيراً في نفوس قرائه وأذهانهم فانقسم المفكرون بشأنها إلى مقر معتق لفلسفته مادح لشعره ، وإلى معترض على ما جاءت فيه من نظريات ثورية تطورية . فإنه قد تكونت نتيجة لكل ذلك مكتبة ضخمة تناولت جميع أنحاء تفكيره بالبحث والنقد وخاصة في القارة الهندية حيث لا زالت أصدااء شعره تلهب حماسة الشباب التواق إلى التقدم والتفوق والإصلاح بحيث إنني حينما أقف اليوم بينكم

لأضيف كلمة تحية وتبجيل متواضعة ، لا أطمح في أن أسهم بمجديد
في هذا الخضم الكبير في الآراء والأفكار وإن كنت أرجو أن
أبدى بعض انطباعاتي الشخصية عن الشاعر العظيم .
تعرفت إلى شعر إقبال أول ما تعرفت بين طيات مجموعة من
مقتطفات شعره حينما كنت طالبة في الجامعة شغوفة بالشعر عطشى
إلى كل جديد في عالم الفكر الإسلامى والعربى . فاستهوته حينذاك
الصبغة الغنائية في شعره ودقة الوصف وجمال الصور التي ينتقها
الشاعر تارة في أحداث الحياة اليومية البسيطة وتارة ترتقى بنا إلى
معان كونية أزلية . فهو يصور اليم المتلاطم الأمواج ويجعله رمزاً
للحياة وكفاحها ، فيقول في أحد أبياته مخاطباً الإنسان : لا تلهون
على الشاطئ الساكن الهادى إنما تقدم وصارع الموج وكافح
فالخلود في الكفاح . ويستعمل صور النجوم والأفلاك السابحة التي
تتوالى عليها الأيام والليالي وهي في دورة من الفناء والبحث المستمر .
وهذه صورة لاشك أنها توحى إلى أذهاننا بأقدم الأساطير العالمية .
وقد شعرت حينذاك في تلك الفترة البعيدة بأن الفلسفة وعمق
الفكر الكامنين في أبياته لا ينقصان شيئاً من رقة ذلك الشعر
ولا في شاعريته بل أمدّاه بطاقة مجنحة : وهذا هو ما ثبت لدىّ عند
قراءتي لإقبال هذا العام للبرة الثانية . فبالرغم من أن شعره ينقسم
في صورته العامة إلى قصصى وتعليمى وغنائى إلا أننا نجد أن هناك

طابعاً خاصاً تأثر به الشاعر اتسمت به كل تلك الضروب في شعره .
وهو طابع الشعر الفارسي بما فيه من لغة مجازية ووصف للطبيعة
وصبغة وجدانية صوفية . فهناك صورة « الساقى ، العتيدة ؛ ذلك
الساقى الذى يدعو الشاعر ليملاً له كأسه علماً وعشقاً ، وصور
الرياض الغناء المليئة بالورود والرياحين تطالعنا وكأنها من
صفحات إحدى اللوحات الإيرانية الدقيقة . وهناك صورة أخرى
تتكرر في شعر إقبال وهى صورة الفراشة التى يبرها نور المصباح
فتجعل فى حياتها القصيرة تحلقاً مستمراً حوله وإن اکتوت أو
احترقت بناره . والفراشة فى هذه الصورة هى الروح البشرية
التواقه إلى النور والمعرفة .

وإننى عندما أقبلت على هذا الكنز من كنوز الأدب الشرقى .
للمرة الثانية كانت هناك فى نفسى أصداء قوية للانطباعات الأولى
عنه . ولكننى اکتشفت فيه هذه المرة وفيما قرأت من نثر إقبال
قوى كامنة جديدة وتبلور فلسفة مستقلة ذات شأن وذات مستقبل
فى عالم الفكر وعالم الواقع فى البلاد الشرقية . إن فلسفة إقبال
باعتراف كبار المستشرقين أنفسهم قد أسهمت فى تيار الفلسفة العالمية
بكثير من الآراء القيمة . وأهم هذه الآراء رأيه فى الذاتية حيث
قضى به على الانشقاق والازدواج اللذين كانا يوجدان فى الأذهان
والمبادئ الفلسفية وخاصة الإسلامية منها بين الروح والجسد .

أو بين الروحانيات والماديات . ذلك الانشقاق الذي تعدى المناقشات في المجالس والندوات الفكرية إلى صميم الحياة الإسلامية وفرّق القوم إلى شيع ، منهم من انساق وراء بريق المادة وانهمك في دورة الحياة الرتيبة ، ومنهم من عاف الدنيا وزهدها . وقد أعطانا إقبال في شعره ونثره وخاصة في محاضراته المسماة « احياء المعاني الدينية في الإسلام » ، والتي تناول فيها حاضر المجتمع الإسلامي في ضوء التاريخ والفلسفة الإسلامية القديمة وأعطانا نموذجاً جديداً للإنسان الذي يستثمر إلى أبعد الحدود وأقصاها ما وهبه الله من قوى وإمكانات وينميها إلى أن يرتقى بها إلى أعلى ما قدر له من ارتقاء .

وهذه الذاتية قد اعتبرها إقبال محور السكون وبشر بأن الإنسان سوف يصل خلال تسميته لها إلى ما يسميه « النياحة الإلهية » ، على الأرض ؛ حيث لا يتصف البشر بصفات الإله (وأهمها الخلق والابتكار) فحسب ، بل يتعاون مع الإله على تطوير السكون نفسه — فالتطور في رأيه حركة لا نهائية لا يحدها العمر ولا الزمن — ويقول في قصيدته « أجنحة جبريل » ، : —

« إن يد المؤمن هي يد الله ؛ يد قوية جبارة خلاقة .. خلقت من طين واستحالت إلى نور ، فهي مخلوق له صفات الخالق ،

وفي نفس القصيدة قال أيضا : « قو ذاتك وكلها بحيث تجعل
الإله يستشيرك في تقرير مصيرك »
ويخاطب الإله قائلا :

خلقتَ الظلام فصغت السراج وطيناَ خلقتَ فصغت الكسوسا
خلقتَ جبالاَ ويبدأ وروضاَ خلقتَ حدائقها والغروسا
وهذان البيتان الأخيران من ترجمة الدكتور عزام .

ولكن ليس هذا مجرد تمرد أو غرور . إذ أن إقبال مسلم
بما في هذه الكلمة من معنى التسليم المطلق . وخلافه مع الصوفية
ليس في مبدأ الخضوع لإرادة الله ولكن حول نظريتهم في الفناء .
فما أجمل أبياته التي يقول فيها :

« أحكم ذاتك في حضرته ولا تفن في بحر نوره »
والتي يتجلى فيها قوة المؤمن واعتزازه بشخصيته إلى جانب إيمانه
وخشوعه . وإقبال يؤمن بأن للقلب قوة خارقة في اكتشاف
الحقائق الكونية ، فالذات مسلحة بسلاحين هما العقل والقلب ،
أولها يفقه الأمور في تفاصيلها عن طريق « العلم » . والثاني يدرك
حقائقها الإجمالية عن طريق « العشق » . وأولها يلقى النور على
ظواهر الأمور وثانيهما يصل إلى النور حتى بواطن الأمور كما
يصل إلى إدراك الحقائق الأزلية وإثباتها . وأهم هذه الحقائق وجود
الله سبحانه وتعالى -- الذي لا يمكن أن نبي معرفتنا له عز وجل

على البراهين والعوامل العلمية أو الحسية البحتة . وهاتان القوتان ليستا بمتضاربتين بل تكمل إحداهما الأخرى . ويقول إقبال : إن العقل البشرى أو الإيمان البشرى يتضمن في ذاته حقيقة معرفة الله كما تنطوى النواة على حقيقة الشجرة وأصلها .

وكما حرر إقبال النفس البشرية من المقاييس العلمية والحسية ووضع لها مقياساً أكثر شمولاً ، حرر فكرة « الزمن » من حدودها وأضفى على الزمن فلسفة تملأ المرء أملاً ورغبة في الإقدام . وتمر آفاقه وآفاق إمكانياته حتى اللانهاية . وهذان بيتان من ترجمة الدكتور عزام تجسد فكرته عن الزمن :

نسج المرء عليه كفننا في صباح ومساء
وترى الحر على التراب علا ناسجا همته فوق الملا
فإن حياة البشر لم تعد مكبلة باعتبارات الأمس واليوم .
بل أصبحت تمتد أمامنا كغد مشرق .

ورغم ذلك فإن من أقوى ما لمستته في كتابات إقبال إدراكه للتسلسل التاريخي في حياة الأمم ذلك الإدراك الذي يهمله كثير من الكتاب المجردين والذي - ليس في اعتقادي - لأي مجتمع راق قوى غناء عنه وعن عبره . ويتجلى ذلك في احترام إقبال للماضي وللتاريخ حيث ظل يستلهمهما في تكوين نظريته عن المجتمع والفرد الصالحين .

وعلى الرغم من أن إقبال أدرك قيمة عنصر القوة في عالمنا إلا أنه كان من أكثر الناس إحساساً بقيمة الخلق والمعاني الإنسانية .
فما أكثر ما ذكر من أمثلة لها مستمدة من التاريخ الإسلامى .
ومع أننا نرى كثيراً من الناس يطلقون لفظ « بشر » للاعتذار عن نقص النوع البشرى وأخطائه – نرى فريقاً آخر يتمردون فيرفعون من شأن البشر إلى مرتبة الآلهة . وفي كتابنا الحالتين إفراط .
والضربى هو أن نعطي هذه الكلمة القدر الذى تستحقه بحيث تتضمن معاني الخير المقرونة بمعاني القوة والاعتداد بالنفس بدون خنوع أو تمرد .

وكما أننا نجد لأهم الموضوعات الإنسانية مكاناً في شعر إقبال كذلك نجده يختص المرأة بكثير من أبياته ويرفعها إلى المرتبة الرفيعة التى وضعها فيها الإسلام . وإذنى اليوم كامرأة أشعر بتقدير مزدوج نحو إقبال مكرم الإنسانية ومبجل المرأة والام حيث يصفها بالفضائل الأساسية التى تكون فلسفته . ومنها تقوية النفس وغيرها من القيم المعنوية . فنجده يخاطبها قائلاً :

يا فطرة نزاعة إلى العلاء

لا تغمضى عينك عن سيرة الزهراء

فالمرأة هى كما يقول عنها « أمينة على الشرع المبين » . وربما لا نجد من إقبال حثاً للمرأة على العمل ولكنى لا أشك فى أنه

لو مد الله في عمره وعاصر هذه الفترة في تاريخنا الحديث لأدرك أن المرأة جزء في المجتمع العامل . فالمرأة في نظر إقبال هي الحافظة للتوازن في المجتمع وهي الأمانة على آمال الأمة وأحلامها والحائنة على أعمالها العظيمة .

وكما يبحث إقبال ويوصي بالعمل على أن تكون الحياة جهاداً كذلك نجد حياته جهاداً في سبيل الاستقرار النفسي والمذهبي . ومع أنه نفي عن نفسه الاتصاف بضعف المتصوفة في كثير من شعره فإن الصبغة التأملية الصوفية التي ورثها عن أجداده البراهمة والتي نشأ عليها تتراءى في تفكيره وكتاباتة . وربما كان الأصح ألا نعتبره معادياً للصوفية بل مغيراً لها ، قلبها من الأفكار الإيرانية الدخيلة المتأثرة إلى حد بعيد بالنظريات الأفلاطونية التي امتزجت بالفكر العربي . وعاد بها إلى معاني الزهد الأصلي التي بشر بها الإسلام . فاختلفه الأكبر مع أئمة الصوفية يتركز في مذهب الفناء في الذات الإلهية . وهي ذروة التجربة الصوفية ، والفرق بينه وبينهم أن تفسيره للنفس البشرية المثالية هي أنها النفس « العاملة » بينما يدركها الإمام الغزالي رائد الصوفية الأول مثلاً على أنها « النفس المطمئنة » .

فقد كان مثل إقبال الأعلى هو الإنسان الذي يجمع في نفسه صفات الرسول « المبشر » بعموم ما يدل عليه هذا التعبير ، لصفات الصوفي الزاهد . وقد حاول الشاعر أن يحقق هذا المثل في حياته

فتناول قلبه واعتلى المنبر الجامعي والسياسي مبشراً بما كان يعتقد أن فيه
بعثاً جديداً للإسلام خاصة ورفعة للمجتمع الشرقى عامة . وقد حقق
بسيرته هذه ركناً أساسياً من أركان الإسلام . وهو نشر كلمة الحق .
والمجتمع المثالي في نظر إقبال هو مجتمع صدر الإسلام حيث
وجدت العدالة التامة والتنزه عن التفرقة العنصرية والطبقية . ذلك
المجتمع الذي يصفه إقبال بأنه جاء تلبية طبيعية لاحتياجات التاريخ
في ذلك الزمن . إذ كانت البشرية في حاجة إلى نظام جديد عادل ،
بعد أن بدأت النظم القائمة تتردى وتحل . وهذه العودة إلى عصر
صدر الإسلام ليست في رأيي بجنين رجعي خيالي إلى عهد قد اندثر .
إنما هي إحياء لتراثنا الروحي الذي خرج في قلب الصحراء ليعم
الكرة الأرضية بالنور . وهذه العبرة التاريخية وهذا التفسير
للإسلام في ضوء المدينة الحديثة كان يعتقد إقبال أنه سوف يكون
قوة دافعة هادفة إلى بناء مجتمع جديد صالح .

ومن أجمل ما أجده عندما أتأمل شعر إقبال تلك الأصداء التي
تتجاوب مع ما في نفسي وتجعل له فيها مكانة خاصة . ألا وهي حنين
إلى الحجاز موطن الهدى والعزة الذي يغني به شعره وأذكر منها
أبياته التي نشرها وهو على فراش الموت . إذ يقول : —

نغمت مضمين لي هل تعود ؟ أنسيم من الحجاز يعود ؟
أذنت عيشتي بوشك رحيل هل لعلم الأسرار قلب جديد ؟

كما أنه سمي ديوانه الأخير الذي صدر بعد وفاته « أرماغات حجاز » أي « هدية الحجاز » . فقد أدرك أن الحجاز — مهد الإسلام ووطن الرسول — قبلة روحية وتاريخية لها في ماضي التاريخ العربي وحاضره أرفع منزلة . فما أجدر بنا اليوم أن نبقى لها مكاناً حياً في قلوبنا وأذهاننا وواقعنا .

ولإقبال في أهل بيت الرسول أسوة وقدوة ومفخرة . فقاطمة الزهراء هي مثال المرأة المسلمة الكاملة ، وابنها الحسين قد ضحى بدمه في كربلاء دفاعاً عن الحق . وفيه لنا مثال للزهد المكافح . فالزهد أو الفقر كما يعرفه ويصفه إقبال من مستلزمات الذات المكتملة فهو يعدد في قصيدته « أجنحة جبريل » أنواع الفقر أو الزهد الزائف إلى أن يقول : —

« ولنا في فقر الحسين أسوة وتراث »

ثم يستشهد في نفس القصيدة بحياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسيرته حيث يقول : إن الفقير الذي يقتدى في فقره بعلي لأعظم شأناً من دارا والإسكندر . وفي أبيات أخرى يستنجد بالرسول عليه الصلاة والسلام لينجيه من وساوس الفلسفة ومن أصنام المدينة المادية الحديثة .

وكم يزخر شعر إقبال بأصداء أخرى تكمن في نفسي وفي نفس كل عربي .

وتتجلى في محبة إقبال للعرب ولشكل ما يتصل بحضارتهم ويشع
في تراثهم . وهو يجعل لكلمة عربي مفهوماً خاصاً شاملاً .
إذ يقول : -

« ما من حدود وأرض كان منشؤها

من أحمد العُربِ كانت أمة العرب

ولم يهتم إقبال فقط بماضينا في شعره بل امتد اهتمامه كذلك إلى
الأحداث التي عاصرها والتي كانت تجرى على المسرح السياسي
العربي في أوائل هذا القرن . فهناك أبياته المعروفة « إلى أهل مصر »
وهناك نداءؤه إلى أبناء سوريا الذين يرثي لهم في ما عانوه من الاستعمار
التركي وما سوف يضلّهم به الاستعمار الأجنبي - وقد حل محل
الاستعمار التركي - في مظاهر المدنية المادية الزائفة .

وكارثة فلسطين التي مزقت الوطن العربي فرقاً وكانت أساساً
لجميع مشاكلنا الحالية كما كانت في نفس الوقت - وإن بهظ الثمن -
خير حافز لنا على التكامل والتعاون - قد وجدت في إقبال نصيراً
لها وتركت أبياته بشأنها أعمق الأثر في نفس كل عربي منامسته تلك
الانكبة الكبرى . وهذه أبياته التي سماها « إلى عربي فلسطيني » : -
تحرّق تلك الجذوة التي تلهب صدرك وتعم أركان الأرض .
فالقبضة الصهيونية قد تعلقّت بخناق العرب . ولكن الأمم العظيمة
هي التي تقاومُ الذلّ بالقوة والإيمان .

وهكذا نجد غيرة هذا المفكر الكبير على قضايانا ونرى أن له فلسفة تستلهم روحها من عالمنا العربي ومن تراثنا ؛ فلسفة أهم ما فيها أنها تربط الماضي بالحاضر وتصل الجذور بالفروع الممتدة إلى العلا . ونحن إذ نؤمن مع إقبال بأن المجتمع الصالح يعتمد على أفراد أقوياء اعتمدوا على ذاتهم وقواها بالعمل وهذبوها بالإيمان بيدو لنا على الفور أن أهم موضوع يحق لنا التفكير فيه اليوم ، هو موضوع التربية ؛ ذلك الموضوع الذي وجد في جامعة القاهرة الغراء خير حرم يشاد بذكره فيه — وفي سيادة وزير التربية — وهذه النخبة من رجال الفكر العربي وكرام السادة في الدول الإسلامية وأمل المستقبل من الطلبة — خير مستمعين .

يرى إقبال أن شباب القارة الهندية والشرق عامة يدورون في أفق محدود ، ويحصرون أنفسهم وشخصياتهم بين غلالي كتاب أصم . أو يسعون وراء العلوم الأجنبية غافلين عما في بلادهم من قيم روحية . مصابين بغرور الجاهل ، ضعيفي الإرادة والشخصية . وهذه آفة لا شك أنها قد عولجت إلى حد كبير في نظمنا التعليمية الشرقية الحديثة .

هذا ما يراه إقبال . وعلى كل مجتمع أن يقرر لنفسه مطالبه وحاجاته وبتبين مواطن ضعفه وعلى ضوءها ينشئ نظامه التعليمي والتربوي الخاص به ومجتمعنا العربي اليوم في حاجة ماسة إلى تعليم

عملي على نطاق كبير . ولكنني أرى مع إقبال أن هدف الثقافة
الجوهري يجب أن يتعدى دائماً نطاقه المهني المحض ويهدف أولاً
وبالذات إلى نشر روح الاستطلاع العقلي . وليس هذا بأرستقراطية
في التفكير أو المطلب ولكنه تطلع إلى بناء الناحية الروحية وتقوية
الذوق العلمي في أفرادنا وبالتالي في مجتمعنا .

وإذا كانت المادة هي الجسم فالمعنويات هي الروح . وهذه هي
حرية الشرق وتراث فلسفتنا الإسلامية المجردة عن الأوهام والبدع
والزخرف . فتى افتخر الشرق بما قدم إلى العالم من روحانيات
أصيلة سامية ومتى تلاقي ذلك مع ما يسهم به الغرب في تيار المدنية
العام من روح النظام والبحث عندئذ نأمل أن تتحقق المدنية الصحيحة
على أيدي هذا الجيل الفتي الذي حملناه كل آمالنا ليسير بها قدماً إلى
أسمى ما يرام ؟

To: www.al-mostafa.com